المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى
حميد بن محمد بن رزيق

التجربة التاريخية فى مفهوم ابن رزيق:

من المؤكد أن ابن رزيق كان مدركاً لأهمية التجربة التاريخية، مقدراً دورها فى صياغة التاريخ العمانى، بحكم أن الرجل كان يملك قدراً هائلا من المعرفة التاريخية التى تؤهله لكتابة تاريخ بلده بطريقة علمية دقيقة. والتجربة التاريخية هى محور التاريخ ومادته الأساسية، ولذا فقد أدرك ابن رزيق خطورة المهمة بعد أن تسلح بالمعارف التى أهلته لخوض التجربة، مع قناعته الشديدة بأن الحقيقة التاريخية المطلقة أمر يصعب تحقيقه، بحكم أن التاريخ نتاج إنسانى يخضع ـ سواء فى صناعته أو كتابته ـ لكل عوامل الضعف الإنسانى، ومن ذا الذى يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلقة فى الماضى أو الحاضر[1].

إن الحقيقة التى يصل إليها المؤرخ حقيقة صحيحة نسبياً، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يكون تاريخاً بالمعنى الصحيح، وابن رزيق كان واعياً لهذا المعنى، معترفاً بهذه الحقيقة حينما قال فى مقدمة واحد من أهم كتبه: أستغفر الله مما خالفتُ فيه الشرع، وحرفتُ فيه الأصل أو الفرع»[2].

وهذا لا يعنى أن ابن رزيق قد حرف شيئاً أو أغفل حقيقة معينة، وإنما المعنى العلمى أن الرجل كان مدركاً خطورة مهمته، مقدراً أن ما يقوم به هو من صميم الجهد البشرى الذى يخضع للخطأ والصواب، فالتاريخ ليس قوانين صارمة، أو قواعد ثابتة، وإنما يخضع غالباً إلى إحساس المؤرخ ودرجة تذوقه وعاطفته وتسامحه وخياله، بالقدر الذى يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازع الآخرين.

---

(١) د. حسن عثمان، منهج البحث التاريخى، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٦، ص ٢١.

(٢) الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر، د. محمد مرسى، سلطنة عمان، ١٩٧٧، ص ٢٠.

ومن الخطأ الشائع مقولة أن التاريخ يكرر نفسه، فلكل تجربة تاريخية خصوصيتها التى تميزها عن غيرها، قد تتشابه التجربة فى بعض الجوانب بدرجة أو بأخرى، لكن أن تصل إلى درجة التطابق فهو أمر لايمكن أن يكون مقبولا، اعتماداً على أن التاريخ فى حركته وتدافعه لا يعتمد على قوانين علمية تحدد خطواته، وإنما هو نتاج إنسانى، قد تتشابه التجارب أحياناً بدرجة أو أخرى، لكن يستحيل أن تتكرر التجربة بنفس دقائقها.

والتجربة التاريخية التى قدمها ابن رزيق من خلال كتابيه الشهيرين «الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين» و «الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان»[(١)]، تتميز بقدر هائل من الثراء، فالرجل يكتب عن بلده عمان ويملك مقومات المؤرخ، حيث الذاكرة المتدفقة بالمعرفة التاريخية، خصوصاً وهو يكتب عن دولة البوسعيديين، فالتجربة حية أمامه، بل هو قريب من صناعة التاريخ الذى ملأه فخراً وشموخًا حيث عمان وقد امتدت لتكون أول إمبراطورية آسيوية إفريقية فى التاريخ الحديث، والخلفية التاريخية لعمان غنية، وقد استوعبها الرجل بكل غناها وثرائها، ومن ثم فقد أدرك خطورة التجربة وأهميتها، ولذا فهى من أمتع التجارب التاريخية الجديرة بالكتابة، وعلى ضوء ذلك يمكن تسجيل عدة ملاحظات:

أولاً - أن ابن رزيق قد عايش جزءاً من التجربة بنفسه حينما أرخ لدولة البوسعيديين، ولذا كانت معلوماته أكثر غزارة، وحينما ابتعد إلى الوراء لكى يكتب عن أئمة اليعاربة راح يسأل جيل الشيوخ ممن تتوافر فيهم درجة الصدق والموضوعية، مع اعتماده بشكل مباشر على كتابات سعيد بن سرحان الأزكوى[(٢)] وغيره، من خلال نقد الروايات وتحقيقها، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر بلغة سهلة، مع الاهتمام بالحوادث التاريخية بشكل دقيق، ولكن حينما ابتعد ابن رزيق إلى الفترات السابقة من التاريخ العمانى بدءاً من هجرات الأزد إلى عمان، ومروراً بالعصور الإسلامية المختلفة، بداية من عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ووصولا إلى عصر النباهنة فى عمان، فإن الرجل قد بذل جهداً هائلاً من خلال متابعته لكل نصوص التراث شعراً ونثراً، وقد أسعفته ذاكرته القوية الحافظة لجمع التاريخ واستنباط تفاصيله، وهى مهمة صعبة للغاية، لكن أشهد أن الرجل قد أداها بأمانة شديدة.

(١) الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان، تحقيق عبد المنعم عامر، سلطنة عمان، ١٩٧٨.
(٢) كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة.

ثانيا - أن التاريخ عند ابن رزيق سلسلة متصلة الجذور عبر الزمن الممتد، ومن أجل أن يكتب عن البوسعيديين فقد راح يتتبع تاريخهم الطويل، منذ وصول الطلائع الأولى من الأزد إلى عمان، كل ذلك عبر حقب تاريخية يبدو أن كل واحدة منها تشكل وحدة تاريخية مستقلة، لكن القراءة الدقيقة لما كتبه ابن رزيق تؤكد أن التاريه العمانى متواصل الحلقات، ومن أجل معرفة تاريخ اليعاربة فلابد من الرجوع إلى عصر النباهنة، ودراسة دولة البوسعيديين لابد أن يسبقها معرفة أحوال عمان طوال عصرى النباهنة واليعاربة... الخ.

ثالثا - يعد ابن رزيق واحداً من جيل اعتبر المعرفة وحدة متكاملة، حيث تتداخل المعارف العربية والإسلامية، فالمغازى والسير جزء من علم الحديث، ومنهج المحدثين من افضل المناهج التى استخدمت لتحقيق الرواية التاريخية، والتراث الأدبى بنثره وشعره يقدم مادة تاريخية تعبر عن الواقع بشكل أو بآخر، وعلوم الفقه تقدم بُعْدًا حقيقياً للواقع الدينى والاجتماعى اللذين يشكلان الهوية الثقافية لأى بلد أو إقليم، وإعمالاً لكل هذه الثقافات فقد راح ابن رزيق يواصل كتابة التاريخ العمانى فى سلسلة متصلة الحلقات، وقد أسعفته ثقافة إسلامية واسعة، وفكر متقد، ونظرة شمولية للأشياء، وفى كل الحالات لم ينس الرجل أنه يؤرخ، ولذا فقد عنى كثيراً بالتفاصيل التى تعد مادة تاريخية مهمة عند إعادة كتابة تاريخ عمان الدينى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى.

رابعا - لقد استطاع ابن رزيق أن يوظف التراث الأدبى لخدمة التاريخ بشكل دقيق، وخصوصاً فى الحقب التاريخية البعيدة، التي ندرت فيها المصادر التاريخية، حيث راح الرجل مستنبطاً من الأدب ما يصلح أن يكون تاريخاً، مع محاولة إعمال النقد المتاح، ولعله فى ذلك قد استفاد كثيرًا مما خلفه المسلمون الأوائل، وخصوصاً فى علم الجرح والتعديل، وقد كان الشعر مادة خصبة وغنية بالحوار التاريخى، وبحكم تذوقه للشعر وحفظه لكثير من نصوصه فقد راح يستشهد به، وهى طريقة استخدمها كل المؤرخين العرب حتى القرن التاسع عشر، ويبدو أن ذلك كان من مستلزمات المتنورين فى عصرهم[1]، حيث تقاس ثقافة الشخص بقدر ما يحفظ من التراث نثرًا وشعرًا، وكلما اقترب ابن رزيق فى كتاباته من التاريخ الحديث قَلَّ اعتماده على الأدب كمصدر تاريخى.

(١) د. محمد مصطفى زيادة، المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى، القاهرة، ١٩٤٩. ص ٥٨.

خامساً ـ إذا كان المقصود بمنهج البحث هو الخطوات التى يتبعها الباحث بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية، فإن ابن رزيق ـ وإن لم يكن قد استخدم المنهج بمعناه المتعارف عليه الآن ـ فإنه قد اقترب كثيراً من المنهج التاريخى حينما راح يقارن بين الروايات، ويناقش الرواة، ويرجح رأياً على آخر، معتمداً على منهج رواة الحديث أحياناً، وعلى مقدرته الذاتية، وثقافته الواسعة، ومعارفه التاريخية فى أحيان كثيرة.

سادساً ـ لقد اتبع ابن رزيق فى كتاباته ما يعرف فى منهج البحث التاريخى بالتأريخ حسب الموضوعات، وكتاب «القول المبين فى سيرة السادة البوسعيديين» يُعَدُّ نموذجاً لهذه الطريقة التى اتبعها كثير من المؤرخين المسلمين، حيث اعتمد المؤلف على فكرة التأريخ لعمان من خلال أسرة البوسعيديين التى أرجع جذورها إلى قبيلة الأزد، وهذه الطريقة قوامها الأشخاص، وتتميز هذه الطريقة بالاهتمام الخاص بالمسائل الأخلاقية والإدارية والعسكرية والدينية، حيث تنقسم المادة التاريخية حسب عهود الحكام والأئمة، على اعتبار أن أخلاق الحاكم وإدارته الصارمة هى من أهم عناصر التاريخ، وهذه الطريقة استخدمها اليعقوبى (٢٨٤هـ)، وكان معاصراً للطبرى، وكتابه فى التاريخ يقع فى جُزْأَيْن: يتناول فى الجزء الأول تاريخ الأنبياء، وتاريخ الفُرس القديم، وتاريخ العرب فى الجاهلية.. الخ، وفى الجزء الثانى رتب التاريخ الإسلامى حسب الخلفاء، مع مراعاة تسلسل الأحداث، بداية من مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ومغازيه حتى وفاته، ثم تتبع تاريخ الخلفاء بنفس الطريقة[1].

واللافت للنظر أن معظم المؤرخين المسلمين قد اتبعوا هذه الطريقة، فها هُو ذا المسعودى (٣٤٦هـ) ـ وقد تأثر باليعقوبى ـ وكتابه «مروج الذهب» يُعد صورة مكررة لما كتبه اليعقوبى، ونفس الطريقة استخدمها ابن قتيبة الدينورى (٢٧٠هـ)، وكتابه «المعارف» يعد مثلاً واضحاً للتأثير الذى أحدثه اليعقوبى، حيث يتبع ابن قتيبة طريقة الكتابة الموسوعية بدءاً من بداية الخليقة وانتهاء بعهد المعتصم، وكتابه «الأخبار الطوال» يعد صورة مكررة لتلك الطريقة[2] وهى الطريقة التى كتب بها المؤرخون المعمانيون من أمثال الأزكوى والسالمى والسيابى.

---

(١) د. عبد العزيز الدورى، نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، ١٩٦٠، ص ٥١.
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٩٤.

سابعاً - لقد عنى ابن رزيق بالأنساب، لدرجة أنه راح يؤرخ لأسرة البوسعيديين من خلال جذورهم الممتدة إلى الأزد، ولم يكتف بمجرد الإشارة إلى هذه العلاقة، وإنما أخذ فى تأصيلها وتحقيقها بطريقة علمية من خلال تتبعه لهجرات الأزد معتمداً على مصادر عربية أشار إلى بعضها أحياناً[١]، وأغفل البعض الآخر فى كثير من الأحيان، ومن ثم فقد جاءت كتاباته عن نسب البوسعيديين وأصولهم سجلا وثائقياً لتاريخ عمان.

ويلاحظ أن ابن رزيق قد استقى معلوماته من مصادر متنوعة، بالإضافة إلى المصادر العربية القديمة فقد اعتمد أيضاً على جمع الروايات الشفهية وتحقيقها على طريقة المحدثين، مع الاهتمام بشكل ملحوظ بالتجربة التاريخية التى تعمق الإحساس بالذات، وتؤكد خطورة الاعتماد على الآخرين دون استنفار الإمكانات الذاتية كوسيلة لتحقيق الأهداف الكبرى، ولذا فقد حرص ابن رزيق على أن يستشهد بقصة امرئ القيس وخروجه إلى قيصر الروم يستنصره على المنذر بن ماء السماء اللخمى، وهى تجربة حقيقية دفع امرؤ القيس حياته ثمناً لها. وقد أورد ابن رزيق بعض الأبيات الشعرية التى تسجل هذا المشهد المأساوى على لسان امرئ القيس نفسه:

أجَارَتَنا إنَّ الخُطوبَ تنوبُ ... وإنى مقيمٌ ما أقامَ عسيبُ

أجارتنا إنَّا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيبُ

فإنْ تَصِلِينَا بالقرابة بيننا ... وإنْ تهجرينا فَالَغرِيبُ غريبُ[٢]

لقد كان ابن رزيق مغرماً بالتراث، ومن ثم فقد أورد كثيراً من التجارب التاريخية التى حفل بها سجل تاريخ العرب، ولعل ما ذكره عن المهلب بن أبى صفرة يعبر عن ثقافة تاريخية واسعة، استمد الرجل معارفه عنها من كتب التراث الأدبى وكتب السير والمغازى.

ومهما قيل من قصور ابن رزيق فى النقد والتحليل، فيكفى الرجل أنه خلف لنا تراثًا تاريخياً طائلا، إضافة إلى مقدرته على ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت الكاملين، مع عدم إغفال عامل الزمن، حيث لم تكن مناهج البحث التاريخى قد عمل بها فى الكتابات

(١) انظر: ابن رزيق، القول المبين فى سيرة البوسعيديين، مرجع سبق ذكره، ص٤، ص٨.
(٢) نفس المرجع السابق، ص١٦ إلى ص ٢٠.
حيث أورد ابن رزيق القصة كما وردت فى كثير من كتب التراث العربى.

التاريخية، وجميع المؤرخين العرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد تأثروا بمدرسة التاريخ العام، متخذين من مؤرخى القرن العاشر الهجرى ـ من أمثال ابن إياس ـ منهجاً لهم فى كتاباتهم، وكان الجبرتى وعبد الله الشرقاوى فى مصر خلال القرن الثامن عشر نموذجين لمثل هذه الكتابات، وجميع هؤلاء لهم يكونوا قد تعرفوا بعد على المناهج العلمية بمعناها المعاصر، ولم تكن لهم طريقة محددة فى الكتابة، سواء من حيث جمع المادة العلمية، أو من حيث عرضها وإعادة صياغتها، وجميعهم قد تأثروا بمنهج علماء الحديث، متخذين من الجرح والتعديل وسيلة لتحقيق رواياتهم وتأصيلها، وهى طريقة علمية لم تغفلها المناهج المعاصرة.

كتابات ابن رزيق كمصدر من مصادر التاريخ العماني:

يعد ابن رزيق واحدًا من أشهر المؤرخين العمانيين، الذين أسهموا بجهد كبير فى تأصيل التراث العمانى، وليس صحيحاً أن الرجل نقد استمد شهرته بسبب ترجمة كتابه «القول المبين» إلى اللغة الإنجليزية فقط، تلك الترجمة التى قام بها المستر بادجر Badger[1]، وإنما ترجع شهرة ابن رزيق إلى دقة رواياته، وإلى تنوع معارفه وانفراده بكتابة تاريخ البوسعيديين بطريقة علمية، حيث كانت له رؤية دقيقة فى الأحداث التى شارك فيها بنفسه، ولم يكتف بمجرد المعايشة، وإنما راح يسأل ويتحقق من مصادر معلوماته بطريقة علمية دقيقة، أما معارفه التاريخية السابقة لدولة البوسعيديين فقد استقاها من مصادر أصلية أشار إلى بعضها، مثل: ابن إسحاق، والواقدى، وابن هشام، والمسعودى، وابن دريد، وابن النحاس، وابن الشعثاء، ثم اعتمد بشكل أساسى وهو يؤرخ لعمان على كتاب «فى التاريخ» للشيخ محمد العداونى، وكتاب «كشف الغمة» لسعيد بن سرحان، وعلى كثير من المخطوطات العمانية التى اعتمد عليها ولم يشر إلى كثير منها.

وإذا كان ابن رزيق وهو يؤرخ لدولة البوسعيديين قد ذهب بعيداً إلى أنساب الأزد ومشاهير علمائهم وأئمتهم من العمانيين، مما قد يبدو للقارئ أن الرجل قد خرج عن هدفه الحقيقى، فإن ذلك يمكن أن يفهم على ضوء ثقافة ابن رزيق ومنهجه الذى اعتمد

(١)سرحان بن سعيد الأزكوى، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد القبيسى، سلطنة عمان، ١٩٨٠، ص ٥.

عليه مستمداً مقومات ذلك كله من كتب التراث العربى، باعتبارها مصادره الأساسية، على اعتبار أن كتب الطبقات والأنساب تضم سير أشراف العرب حسب أنسابهم، وتتجدد العناية بالأنساب نفى سنوات الأزدهار والشموخ، ومن ثم فقد عنى العرب بأنسابهم، ثم كثرت عناية كتاب الطبقات والسير فى المشرق والمغرب بوضع معاجم لطوائف الرجال ولفروع العلوم عندما اتسعت آفاق المعارف، وأصبحت هناك ضرورة إلى وضعها، وتعد هذه المعاجم من المصادر المهمة للتاريخ الإسلامى، حيث تزود الباحث بمادة تاريخية خصبة.

وينسب إلى البلاذرى كتاب «أنساب الأشراف»، ويبدأ بذكر نسب نوح عليه السلام، حتى يصل إلى عدنان، ثم يتدرج إلى أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرته حتى وفاته، ثم ينتقل إلى الحديث عن آل الرسول عليه السلام، بادئاً بأبى طالب وأولاده، وخصوصاً علىّ وأولاده، ثم يتحدث عن أبى العباس السفاح، وأبى جعفر، وخلفاء العباسيين حتى هارون الرشيد، ثم يعود لاستكمال رواية أنساب القرشيين[1].

وكتابة الأنساب على النحو الذى أداه البلاذى لم يعد يتناسب وأهمية تحقيق المعلومات التى يعنى بها المنهج العلمى فى الوقت الحاضر.

وإذا كان ابن رزيق قد استفاد كثيراً من كتب الأنساب وأخذ بمنهجهم فى بعض ما كتب، فإنه أفرد لنفسه طريقة خاصة، فالأخذ بطريقة الأنساب لديه تؤدى وظيفة واضحة، فهو يؤرخ لبلده عمان ولأئمتها وحكامها، ومن ثم فقد راح يتتبع جذورهم وأصولهم، رابطاً الماضى بالحاضر من خلال فهمه للتاريخ، على اعتبار أن حركته متصلة يصعب فهم ظواهرها بدون كشف مكنونها من خلال تسلسل الأحداث التى أخذ يحققها من خلال مصادرها فى كتب التاريخ والأدب بشعره ونثره، باعتبارهما مصدرين هامين، حيث يصور الأدب كثيراً من الأحوال الاجتماعية والدينية، كما يصور طباع وأخلاق الهيئة الاجتماعية الحاكمة، ولذا فقد قيل: إن «الشعر ديوان العرب»[2].

---

(١) البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر)، فتوح البلدان، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٧.

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٥٧.

د. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٣٥.

وابن رزيق قد تذوق الأدب وانتقى منه ما يصلح لكى يكون تعبيراً عن الواقع بمعناه الحقيقى، خصوصاً فى الفترات التاريخية التى لا تسعفه فيها المصادر التاريخية، مثل الحديث عن بنى المهلب، والحجاج بن يوسف... إلخ، وإذا كان ابن ررزيق قد حدد الهدف الذى دفعه إلى كتابة تاريخ البوسعيديين نزولا على رغبة السيد حمد بن سالم بن سلطان، إلا أن الرجل لم يكتف بكتابة تاريخ البوسعيديين فقط، وإنما عنى بتاريخ عمان عموماً، وتمكن بطريقة سهلة من الربط بين التاريخ الدينى والاجتماعى والسياسى من خلال منظومة أسلمت القارئ إلى الدخول فى تاريخ البوسعيديين دونما خلل أو تعارض، وكلما اقترب ابن رزيق من دولة البوسعيديين كانت رواياته موثقة، وشهاداته قاطعة. ولاشك أن معاصرة المؤرخ لأحداث زمانه تطبع رواياته التاريخية بطابع الصدق والدقة، فالمؤرخ الذى يعيش فى زمن قريب من الزمن الذى دارت فيه الأحداث التى يقوم بتأريخها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين على تصويرها بشكلها الحقيقى.

والحقيقة أن كتابة التاريخ المعاصر تعتمد كثيراً على المعايشة والسماع والتحقق من مصادر متنوعة، وهى كلها أمور تحول دون وقوع المؤرخ فى الأخطاء، وشهادة ابن رزيق عن أسرة البوسعيديين شهادة جديرة بأن تكون مصدراً أساسياً لاغنى عنه لكل من يؤرخ لأسرة البوسعيديين.

وإعمالا لمنهج علماء المسلمين، الذى اعتمد عليه واحد من أهم المصادر الإسلامية[1]، يمكن اعتبار ما كتبه ابن رزيق صحيح فى حقيقته حيث توافرت فى الرجل كل الشروط الواجب توافرها فى من تنطبق عليهم شروط من يحتج بروايته كان يكون عدلاً ضابطاً لما يرويه، مسلماً بالغاً، عاقلاً، سالماً من أسباب الفسق وخوارم المروءة، حافظاً إنْ حدَّث من حفظه، ضابطاً لكتابه إن حدث من كتابه، ويعرف كون الراوى ضابطاً بأن تُقاس روايته بروايات الثقات المعروفين بالضبط والإتقان، وهى أمور توفرت كلها فى ابن رزيق.

وهكذا تبدو صعوبة دراسة التاريخ وتحقيقه ونقده، وعلى الرغم من ذلك فإن النقد

(١) يعنى مقدمة ابن الصلاح لمؤلفها (عثمان بن عبد الرحمن أبو عمرو تقى الدين)، أحد علماء التفسير والحديث والفقه، ولد ١١٨١م فى شرخان قرب شهر زور، ثم عمل فى الموصل وبيت المقدس ودمشق مدرساً لعلم الحديث، وتوفى ١٢٤٥م، وله مؤلفات كثيرة من أهمها «مقدمة فى علوم الحديث» و«الفتاوى وفوائد الرحلة» و «أدب المفتى والمستفتى».

التاريخي لا يثبت الحقيقة التاريخية كاملة، بل يساعد على بلوغها، ويضاعف من احتمال الصدق فيها.

وكتابات ابن رزيق ـ وخصوصاً ما كتبه عن اليعاربة والبوسعيديين ـ يمكن اعتبارها أقرب ما يكون إلى الحقيقة التاريخية، حيث تتفق رواياته مع كتابات المؤرخين الذين اعتمدوا على المنهج العلمي بشكل دقيق في كتاباتهم، إضافة إلى التوافق والتآلف والاتساق بين كل ما كتب، وتؤكد الحقائق التاريخية بعضها بعضاً، ويوجد بينها صلة وعلاقة تتسق بشكل متناغم.

وتقديراً من ابن رزيق لأهمية الحقيقة التاريخية فقد راح يتابع روايات من سبقوه من المؤرخين معتمداً على الإسناد في نقد الأخبار وضبطها، وهي ميزة انفرد بها، وقد اتبع طريقة علماء الحديث في تدارس الروايات بسندها المتصل قراءة وسماعاً وإجازة، ومهما قيل من قصور في طريقة النقد فيكفي الرجل أنه خلف ثروة تاريخية طائلة، وتمكن من ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت، وأنه حرص قدر الإمكان على الصدق في القول والنزاهة في الحكم، فجاءت كتاباته مصدراً أساسياً من مصادر تاريخ عمان.

والحقيقة التاريخية عند ابن رزيق تؤدي وظيفة تتخطى مدلول التجربة العامة إلى التجربة الخاصة، فهو يكتب عن بلده عمان من خلال أئمتها وحكامها، واختياره لتلك الشخصيات ليس من قبيل المصادفة، وإنما الرجل قد انبهر بسيرة هؤلاء وتأثر بهم، والكتابة عنهم لا تعد تحيزاً لقضية بذاتها، وإنما جاءت كتاباته كأنها تمثل رصداً للواقع، مع شيء من التصرف أحياناً، ومن قبيل الأمانة العلمية، فقد راح ينقل نصوصاً كاملة من مصادر أصلية، كسرحان بن سعد الأزكوي، بداية من تأريخه للأزد وانتهاء بعصر اليعاربة، وكتاب الأنساب للعتبي، ولم يغفل الكتابة عن أوجه النشاط الإنساني العماني عموماً منذ عصر الرسول ﷺ، بدون أن يتابع إسهامات أهل عمان في الحضارة الإسلامية، ولعل المراجع لم تسعفه في هذا الجانب، إلا أنه درس البيئة العمانية والأئمة ودورهم في حركة التاريخ ومشكلات الحرب والسياسة، شارحاً أحوال المجتمع العماني، وعوامل قوته وضعفه بأسلوب سهل بسيط، فضلا عن عنايته بضبط الروايات وتحقيقها[1].

(١) د. محمد صابر عرب، المنهج التاريخي في كتابات سالم بن حمود السيابي، حصاد أنشطة المنتدى الأدبي بعمان، ٨٩/ ١٩٩٠، ص ٣٣٧.

والعقيدة الدينية هى محور القضية برمتها فيما كتبه ابن رزيق، ولعله وهو يكتب عن عمان خلال العصر الأموى[1] قد أدرك أن قضية الاتفاق والاختلاف مصدرها القرب أو البعد عن الدين، وبما أن الأمويين قد أباحوا لأنفسهم ما يتعارض مع أساسيات الشريعة الإسلامية، ولذا فقد كان على أهل عمان أن يعيدوا النظر فى علاقتهم بالأمويين انطلاقاً من دوافع دينية خالصة، ومن ثم كانت الحرب التى زلزلت أركان الأمويين إلى عصر عمر بن عبد العزيز الذى استعمل على عمان عدى بن أرطأة الفزارى، ثم عزله واستعمل بدلا منه عمر بن عبد الله الأنصارى[2]، واللافت للنظر أن ابن رزيق عند الحديث عن عمر بن عبد العزيز قد أبدى احتراماً وتقديراً له، وأورد له كثيراً من المناقب التى تنم عن عقلية واعية وفكر مستنير، مما يؤكد أن موقف العمانيين من الدولة الأموية كان محوره العقيدة الإسلامية وأن عدل عمر وسيرته الكريمة وزهده وورعه كل ذلك قد دفع بأهل عمان إلى الانصياع لحكمه، وتتفق كل مصادر التاريخ العمانى على أهمية فترة عمر بن عبد العزيز، الذى استجاب لشكاوى أهل عمان وعزل عدى بن أرطأة الذى اشتط فى حكمه وتجاوز على حقوق الناس.

وإذا كانت العقيدة الدينية قد طبعت فى كتابات ابن رزيق بطابع مميز فلا يمكن أن ننحى الدوافع الوطنية جانباً، لأن سيرة عظماء الرجال وتجاربهم قد سيطرت على كتاباته، بحكم أن النفس الإنسانية تميل دائماً إلى معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال، وهو نوع من الحوار التاريخى بين الماضى والحاضر، حيث تكمن التجربة التاريخية، ومن ثم يتعرف الناس على حقيقة هؤلاء من خلال سيرتهم التى تلهب المشاعر الوطنية وتحفز الناس للاقتداء بهم.

ويجوز لنا أن نقول: إن الماضى يختلف وفقاً لظروف كل عصر، وإن للأمة الواحدة تاريخاً واحداً، لكن تتباين الآراء فى تفسيره، ولذا فلابد لكل عصر من أن يعيد كتابة التاريخ وفقاً لما قد يظهر من وثائق ومخطوطات تضيف شيئاً جديداً، وفقاً للمصادر وأدوات البحث، ومقدرة المؤرخ على التحليل والتفسير.

ومما يضاعف من أهمية كتابات ابن رزيق وهو يؤرخ لعمان فى عصر النباهنة على

---

(١) الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٣.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٢١.

وجه الخصوص، أنه أدرك جوهر التاريخ من خلال ثقافة واسعة نحت به منحى فلسفياً عميقاً، حيث راح يتعرف على علل الحوادث، وأسباب قيام الدول، وأسباب سقوطها، ومظاهر العمران فيها، ولعله كان متأثراً بفيلسوف مؤرخي العرب قاطبة عبد الرحمٰن بن خلدون في مقدمته الشهيرة.

وتُعد كتابات ابن رزيق عن نبهان بن فلاح وحروبه ضد القبائل العمانية[١]، نموذجاً لتأثير المحدثين في جمع الرواية التاريخية ونقدها، فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلي، وهو عادة شخص عدل، له علم مباشر بالواقعة المروية، أو أخذها من بعض مظانها، ككتاب قديم ضاع، أو من بعض أهل البادية، وتلك كانت الحال في رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الإسلام، وهذه الطريقة التي اعتمد عليها ابن رزيق ضمنت له صحة الأخبار المتصلة بالأحداث التاريخية في جوانب كثيرة.

وإذا كان الإسناد عند ابن رزيق هو أساس نقد الأخبار، فقد كان أساس ضبط رواياته هو التوقيت الدقيق لها بالسنين والشهور والأيام، تنوهو ما يبدو واضحاً في كل ما كتب.

وعلى سبيل المثال فهو يحدد نهاية عصر النباهنة بقوله: «ولما كان ليلة الأربعاء لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ثمان وستين وتسعمائة، دخل بركات بن محمد بن إسماعيل حصن بهلا، وأخرج منه عبد الله بن محمد القرن»[٢].

والرواية التاريخية عند ابن رزيق تخضع أحياناً لكثير من المأثورات الشعبية، شأنه في هذا شأن كثير من المؤرخين المسلمين، والرجل من منطلق أمانته العلمية يرجع مثل هذه الروايات إلى مصدرها، مثل قصة الصراع الذي دار بين سليمان بن سليمان النبهاني ومحمد بن إسماعيل، وهي قصة تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة، وإذا كان ابن رزيق قد أشار إلى أنه سمعها من أكثر من شخص[٣] غير أنه لم يحققها تحقيقاً يتناسب وأهميتها، ولعل المصادر لم تمده بمعلومات وافية.

---

(١) ابن رزيق، الفتح المبين، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٥، ص ٢٥٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٦٠.

(٣) انظر: ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة نعمان، تحقيق عبد المنعم عامر، ص ٨٦.

ولعل ابن رزيق كان متأثراً بما كتب عن سليمان بن سليمان النبهاني، الذي أجمعت كل كتب التراث العماني على أنه كان رجلا متجاوزاً على حقوق الناس، وكان متظاهراً بالفسوق، ونهاية القصة أن محمد بن إسماعيل قد قتل سليمان أو صرعه إلى الأرض وداس على صدره، وبقي عليلاً إلى أن مات[1] (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م).

ولا خلاف في أن محمد بن إسماعيل قد قتل سليمان بن سليمان النبهاني، لكن الذي لايمكن أن يكون مقبولا ما قيل من أن سليمان هذا كان يمع هاتفاً يحدثه بصوت مسموع عن قرب نهاية دولته، وهو قول لايستقيم، لكونه رجلاً فاسقاً وفقاً لقول ابن رزيق نفسه، الذي أشار إلى أنه استقى هذه الروايات من مصادر شفوية. ومن الثابت عملياً أن الروايات الشفوية تتعرض كثيراً للتحريف والإضافة، وتتداخل مع الروايات الشفهية كثيرٌ من الأساطير، ويوجد قدر من الأساطير في تاريخ كل أمة، مثل أساطير قدماء المصريين، وأساطير الفرس، والهنود، والرومان، والصقالبة، والجرمان.

وفي عهود الحضارة تستمر هذه الأساطير الشعبية، وحينما تبدأ أمة من الأمم في تدوين تاريخها لا تنتهي مثل هذه الروايات الشفوية، وعلى ذلك تنشأ النوادر أو القصص المسماه بالأساطير، مثل الإشاعات والحكايات التي تتركز حول بعض الشخصيات أو الحوادث، وفي حياتنا اليومية تُؤخذ الأقاويل على أنها حقائق، أو ـ على الأقل ـ على أنها تحتوى على عنصر من الحقيقة، والصحيح أن الأقاويل والإشاعات ربما تحتوى على عنصر من الحقيقة، ولكنها ليست كل الحقيقة، وأحياناً قد يتعذر التمييز بين الحقيقة والخيال، إذ قد يكون الخيال قريباً من الحقيقة بحيث يصعب التفرقة بينهما[2].

وعلى الرغم من كل ما سبق فإن ابن رزيق ـ وبأمانة متناهية ـ ينقل ما قرأه أو سمعه، وعندما تتعارض الروايات يرجح رأياً على رأى، بدون أن يقطع بأن ما قال به هو الحقيقة المطلقة[3]، وعندما يتعرض ابن رزيق لقصة الإمام ناصر بن مرشد يعتمد بشكل أساسي على ما كتبه سرحان بن سعيد الأزوى، لدرجة أنه يستطرد كثيراً فيما ذكر عنه من كرامات.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) د. حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ص ١٣٥، ص ١٣٦.

(٣) ابن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.

وعلى الرغم من أن كرامات الأولياء مسألة مقطوع بصحتها، لكنَّ إقحامها فى مجال التاريخ أمر لا يعتد به ولا يقيم دليلا، وإنما الذى يمكن الاستناد إليه هو عدله وحرصه على مصالح رعيته، والتزامه الصارم فيما يتعلق بأمور دينه، ومقدرته الفذة فى جمع القبائل العمانية وتوحيد صفوفها ضد البرتغاليين، حيث استطاع ـ وبمهارة شديدة ـ أن يحقق انتصارات هائلة ضد الطامعين فى احتلال بلاده، وضد الرافضين للوحدة العمانية التى تعد الدعامة الأساسية لقوة عمان وهيبتها.

وإذا كان ابن رزيق قد أمدنا كثيراً بمعلومات عن ناصر بن مرشد، فإنه ترك كثيرًا من المسائل المهمة، ومن بينها الحروب التى كان يخوضها ضد البرتغاليين بعد أن أجهز عليهم الفرس والإنجليز فى هرمز ١٦٢٢، والتحصينات الهائلة التى أقامها البرتغاليون فى مسقط، ومطرح، ومقدرة ناصر بن مرشد بإمكاناته المتواضعة من أن ينزل بهم هزائم ارهقتهم، وشتَّتْ من جهدهم.

واللافت للنظر تزامن سقوط هرمز ١٦٢٢، مع قيام دولة اليعاربة ١٦٢٤، وكيف قدر للإمام ناصر بن مرشد أن يخوض صراعاً مريرًا ضد الفرس والبرتغاليين معاً، بحيث لم يبق للبرتغاليين عند وفاته ١٦٤٩ غير التحصينات المشرفة على مسقط ومطرح[(١)].

وتعد المعلومات التى أوردها ابن رزيق على درجة كبيرة من الأهمية فيما يتعلق بناصر ابن مرشد، لكن جاءت معظم هذه المعلومات متناثرة افتقدت إلى الترابط والانسجام، ولعل أجمل ما قيل شعرًا ما قاله ابن رزيق وهو يصور صواع الإمام ناصر ضد البرتغاليين ودعاة التجزئة من بعض القبائل العمانية:

أبادَ المشركين بسيف عدلٍ وأهلَ البَغْى فاقتضبوا اقتضابَا
سَقَى أسيافَه عَلَق الأعادى فما ضرموا بدورهم قبابا
فمِنْ صور إلى صبر ظُبَاه تصب دماً وتنمو الانصبابا

والحقيقة أن ما كتبه ابن رزيق شعرًا يعد تصويرًا رائعاً لطبيعة الصراع الذى خاضه الإمام ناصر ضد أعدائه على جبهتين: إحداهما على السواحل العمانية، والأخرى ضد

---

(١) د. جمال زكريا قاسم، الخليج العربى، دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٠٥.

القبائل الرافضة لفكرة الوحدة، وهى معارك شرسة خاضها الإمام بمهارة وعبقرية، وما كتبه عبد الله بن خلفان بن قيصر يعد تصويراً جميلا، يحمل فى طياته حقائق تاريخية، جسدت كفاح هذا الإمام الذى استطاع أن يوحد القبائل العمانية بعد تجزئة دامت لأكثر من ثلاثة قرون، ولعل أجمل ما قيل شعراً:

إمام الورَى قُمْ فى الطغاة مجاهدًا   فإنك منصورُ السرايا على العدَا
فلازلت للإسلام شمساً منيرة   ولازلت للظُّلْمَاء حتفاً مؤكدا

ويقول فى قصيدة أخرى:

لقد سارَ الإمامُ على النصارَى   بمسكد فى جَحافله نهارا
بجيش عَمَّ اقطار الفيافى   به الآفاق قد كُسِيَتْ غُبارا
فهدَّم سُورَها ومَحَا بروجًا   مُشَيَّدَةً بها ومحَا ديارا
وأيقنتِ النصارى مذ أتاها   بِطَمْس حيث لم يجدوا فرارا(١)

لقد استطاع ابن رزيق أن يقدم رؤية تاريخية للإمام ناصر من خلال تصور دقيق لطبيعة الصراع ضد البرتغاليين، الذى اصطبغ بالنزعة الدينية التى ضاعفت من رغبة العمانيين فى الاستشهاد دفاعاً عن عقدتهم ووطنهم، وإن كان لم يستطع تفسير كثير من الظواهر التاريخية التى مكنت الإمام ناصر من تحقيق كل هذه الانتصارات.

وابن رزيق بحكم ثقافته الواسعة لم يكتف وهو يؤرخ لعصر اليعاربة بمجرد التجربة التاريخية فى عمان، وإنما راح يستشهد من التاريخ العربى والإسلامى بكثير من المأثور شعرًا ونثرًا، مقتبساً من القرآن الكريم أحياناً، ومن السنة النبوية وسيرة الرسول فى أحيان كثيرة، حيث يتداخل التاريخ فى القصص والسنة النبوية فى السير والمغازى، ومن عيون الشعر العربى، وحكايات العرب، يقدم ابن رزيق كل ذلك بطريقة سهلة ميسرة تنم عن تذوق رقيق، وحس مرهف، ورؤية شاملة للمعرفة، وتعد قصيدته الرائعة «الشعاع الشائع» كتاباً تاريخياً دقيقاً حرصاً منه على تسجيل تاريخ بلاده شعرًا، بحكم أن الشعر أسهل حفظاً من النثر، وأن الرجل ـ حرص على أن يكون تاريخ بلاده قصيدة شعرية يتغنى بها العمانيون، وهى تجربة جميلة حرص عليها معظم المؤرخين العمانيين،

(١) عبد الله بن خلفان بن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، ص ٧، ص ٢٧، ص ٢٨.

وهى تمثل مرحلة ثقافية قَلَّت فيها الفروق بين الأدب والتاريخ لكى يُعبرا معاً عن الواقع بكل تداعياته، وهى رؤية إنْ صحت فى عصر بذاته فلا تصلح فى كل العصور، وخصوصاً بعد أن انفصلت المعارف، وأصبح التاريخ علماً قائماً بذاته له أصوله العلمية والمنهجية التى تختلف كثيراً عن الأدب.

وعموماً فإن ما كتبه ابن رزيق يعد مادة تاريخية لا يُستهان بها لكل من يريد أن يقف على تاريخ عمان، والرجل بحكم ثقافته قد اجتهد فى أن يقدم دراسة وافية لتاريخ عمان من خلال كتابيه الشهيرين: «القول المبين فى سيرة البوسعيديين»، و «الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان». والمعلومات الواردة فى الكتابين تكاد تقريباً أن تكون مكررة، إلا أنه قد توسع فى الكتاب الأول عن دولة البوسعيديين، فى حين جعل الكتاب الثانى مقصوراً على الأئمة، بداية من الجلندا بن مسعود وحتى نهاية عصر اليعاربة، لكن كتاب «القول المبين» يتميز بقدر كبير من المعلومات، ورؤية علمية اعتمدت على تحقيق الرواية إعمالا لمنهج علماء المسلمين المعروف بعلم الجرح والتعديل، إضافة إلى معايشته لفترة مهمة من تاريخ دولة البوسعيديين، مما طبع رواياته بالدقة والموضوعية، وخصوصاً فى الفترة التى عايشها بنفسه، واستقى معلوماته عنها من واقع مشاهداته اليومية، مما ضاعف من أهمية كتاباته التى تُعد أساساً لا غنى عنه لكل من يريد الكتابة عن دولة البوسعيديين.

والقراءة العلمية لما كتبه ابن رزيق عن أحمد بن سعيد البوسعيدى (مؤسس دولة البوسعيديين) تقدم معلومات وافية عن أوضاع عمان الداخلية، وخصوصاً فيما يتعلق بالعلاقات بين القبائل، إضافة إلى كثير من التفاصيل عن الإمام أحمد بن سعيد، خاصة فيما يتعلق بعدله وتنزهه عن الصغائر، ومقومات شخصية، وكل هذه المعلومات قد استقاها من شخصيات عاصرت الإمام أحمد، مثل الشيخ معروف بن سالم الصايفى، والشيخ خاطر بن حميد البداعى، وغيرهما[1].

ولكن اللافت للنظر أن كتابات ابن رزيق قد خلت من أية معلومات عن كيفية قيام دولة البوسعيديين، وكيف استطاع الإمام أحمد طرد الفُرس من ساحل الباطنة ١٧٤٤م، وعمَّا إذا كانت ثمة علاقة بين مبايعته إماماً، ونجاحه فى طرد الفرس.. وتجمع المصادر

(١) القول المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٢.

التاريخية على أنه بعد نجاح الإمام أحمد في هزيمة الفُرس سارع بعقد اجتماع مع رؤساء وشيوخ القبائل في الرستاق، وإعلانه عن رغبته في قيام حكومة عربية، ودعا رؤساء القبائل إلى اختيار أحدهم إماماً، إلا أنهم فضلوا مبايعته، لأنه الرجل الذي يرجع إليه الفضل في تخليص عمان من سيطرة الغرب(١).

وتجمع المصادر التاريخية أيضاً على أن أحمد بن سعيد قد استطاع إدارة البلاد من خلال سلسلة من القوانين التي استنها، وإرساء قواعد اقتصادية وقضائية وإدارية، وتكوين جيش منظم أشرف بنفسه على إعداده، وكل هذه أمور كانت جديرة بالاهتمام من ابن رزيق، غير أنه عنى كثيرًا بالحروب الداخلية التي استغرقت جهدًا كبيرًا من الإمام أحمد، وكانت موضع تقدير من كل القبائل العمانية، التي بهرتها كل تلك الإنجازات الضخمة(٢).

وتبدو أهمية كتابات ابن رزيق فيما يتعلق بفترة حمد بن سعيد بن الإمام أحمد ١٧٧٩ /١٧٩٣، فلم يذكر الأزكوي في كتابه الشهير «كشف الغمة» شيئاً عن حمد بن سعيد، ولم يشر إلى استقلاله بمسقط، ولا إلى جهوده في توحيد القبائل العمانية، بل ذكر أن الإمام سعيد بن الإمام أحمد قد توفى في حياة ابنه حمد، وهو ما يتعارض مع ما ذكرته المصادر التاريخية التي أجمعت على أن حمد هو الذي توفى في عهد ولده، الذي رثاه في قصيدة شهيرة مطلعها:

وافَى حِمامُك يا حبيبى بالعَجَل نار تَوَقَّدُ فى الضمير وتشتعل(٣)

ويذكر مصدر عماني آخر أن حمد بن سعيد بن الإمام أحمد كان ذا سمعة حسنة، وأحبه أهل عمان، غير أنه لم يذكر شيئاً عن انفراده بحكم عمان، ما عدا الرستاق التي اتخذها والده مقرًا له(٤).

أما ابن رزيق فقد أضاف كثيرًا من المعلومات التي يفهم منها أن حمد بن سعيد بن الإمام أحمد قد تولى الإمامة في زمن أبيه الذي تنازل له عنها طواعية بعد أن استقر به

(١) د. جمال زكريا قاسم، دولة البوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ - ١٨٦١، القاهرة ١٩٦٨، ص ٤٦.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٨.
(٣) عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي، إصدار شركة الزيت العربية الأمريكية، ص ١٦.
(٤) ابن رزيق، القول المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ص ٤١٤.

المقام فى الرستاق، واستقر حمد فى مسقط، ثم ذكر كثيراً من التفصيلات عن صراعه مع عمه سلطان بن أحمد، وحروبه ضد كثير من القبائل التى راحت تتحين الفرص للاستقلال بولايتها بعيداً عن سلطة الدولة، ويؤكد ابن رزيق أن الإمام حمد كان يعد العدة للتوسع خارج عمان، وكان دائم التفكير فى ممبسة وبمباى، ولكن كان يرى أن ضمهما إلى عمان لن يتحقق إلا بعد أن يبرم صلحاً مع عمه سلطان بن أحمد، وهو ماتحقق بالفعل، لكن لم تسعفه المنية، فتوفى ما بين عام ١٧٩٢ وعام ١٧٩٣[١]، وينفرد ابن رزيق بأنه المصدر الوحيد الذى أسعفنا بمعلومات وافية عن الإمام حمد بن سعيد، ويبدو أنه استقى هذه المعلومات من المعاصرين لتلك الفترة الذين أجمعوا على أن حمد ابن سعيد قد تميز بصفات أهلته لكى يكون جديراً بإمامة عمان. وفى كتابات الشيخ السالمى إشارات كثيرة عن جهوده فى جمع شتات القبائل العمانية، لكن ليس بصفته إماماً، ولكن بصفته نائباً عن والده الإمام سعيد بن أحمد[٢].

ويلاحظ على ضوء ما ذكرته المصادر العمانية التى أغفلت هذه الفترة المهمة من تاريخ عمان، أن الإمام سعيد بن أحمد قد قوبل بمعارضة شديدة من معظم القبائل العمانية، وأن كثيراً من المدن قد استقل بها ولاتها، وأن محاولات قد بذلت لتنصيب قيس بن الإمام أحمد إماماً بدلا من شقيقه، وأن محمد بن خلفان بن محمد البوسعيدى قد انفرد بمسقط وضواحيها، وباتت إمامة سعيد بن أحمد عرضة لمخاطر كثيرة، ولعل حمد بن سعيد قد أدرك أن إمامة والده فى الرستاق قاب قوسين أو أدنى من الضياع، ولذا فقد اتفق مع والده على أن يتخذ من مسقط مقراً للحكم على أن يباشره بنفسه، وأن يبقى الوالد مقيماً فى الرستاق، التى اتخذها مقراً لإمامته، وأن يتولى حمد الذى عُرف بدهائه حكم عمان، وأن يمارس كل سلطاته فى جميع الشئون بحكم ثقة أهل عمان فيه، بسبب ما كان يتمتع به من سمعة طيبة.

ويبدو أن ذلك قد حقق فوائد كثيرة، فقد نجح حمد بن سعيد فى استرداد مسقط، وكل المناطق المجاورة لها بعد أن استبعد محمد بن خلفان، الذى كان قد استقل بها، وأقبلت القبائل العمانية على مبايعته، لكن ليس صحيحاً أن حمد قد نصب نفسه إماماً، لأنه ليس من المعقول أن يقدم على هذه الخطوة ووالده إمام فى الرستاق.

(١) نور الدين السالمى، تحفة الأعيان لسيرة أهل عمان، جـ٢، ص ١٧٨.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٤١٠.
(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٧٦.

والحقيقة أن ابن رزيق قد أشار إلى استقلال سعيد بن أحمد بالرستاق، وأن ابنه حمد قد تملك حصون عمان كلها، ولم يوضح هل تنازل الوالد لولده عن الإمامة أم أنه كان يحكم عمان نيابة عن والده، ولعل الاحتمال الثانى هو الأرجح، لأن علاقة الوالد بولده قد استمرت، وكان كلاهما يزور الآخر ويتشاوران فى شئون الحكم والسياسة مما يضاعف من قناعتنا بأن الإمام سعيداً كان إماماً فى الرستاق التى كانت عاصمة للإمامة وقتئذ، وأن «مسقط» قد أصبحت عاصمة للسياسة تدار بواسطة الابن الذى نجح بمهارة فى إدارة شئون البلاد بعد أن نجح فى كسب ود القبائل العمانية.

وعلى العموم فإن ابن رزيق على الرغم من أنه كان قريباً من هذه الفترة، وقد أورد معلومات كثيرة تعد على درجة كبيرة من الأهمية، فإنه لم يحسم هذه القضية وتركها رهن اجتهاد الباحثين والمؤرخين.

وبوفاة حمد بن سعيد استطاع سلطان بن أحمد انتزاع مسقط والمناطق المجاورة لها، ولم يعمل على عقد الإمامة لنفسه، وإنما ظل سعيد يقوم بها فى الرستاق[1].

وفى تاريخ دولة البوسعيد قضايا على درجة كبيرة من الأهمية، وعلى الرغم من معايشة ابن رزيق لها فإنه لم يتعرض لها، فى حين اهتم بجوانب أخرى مثل المشاكل الداخلية فى عهد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٤ ـ ١٨٥٦)، والتى استغرقت فترة طويلة من حكمه، والتى تركت آثارها على علاقاته مع السعوديين الغاضبين عليه لمقتل حليفهم بدر بن سيف، والطامعين فى الاستيلاء على عمان، إضافة إلى ما واجهه السيد سعيد بن سلطان من محاولات الانفصال عن الدولة من عمومته وأبنائهم، وثورات القبائل، وقد تناول ابن رزيق الكثير من هذه الموضوعات بالتفصيل الدقيق بدون أن يذكر شيئاً عن موضوعات أخرى على درجة كبيرة من الأهمية، مثل علاقة السيد سعيد بن سلطان بالقواسم، ولم يوضح أيضاً موقف عمان من التنافس الإنجليزى الفرنسى وقتئذ.

وعلى الرغم من كل المشاكل التى واجهت السيد سعيد بن سلطان فإنه استطاع أن يثبت من نفوذه فى شرق إفريقيا، وبناء أول إمبراطورية آسيوية إفريقية فى تاريخ العرب الحديث، وكنا نأمل من ابن رزيق أن يوضح لنا كيف تم ذلك؟

---

(١) دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

وعلى العموم فقد أفادنا ابن رزيق كثيراً فى فهم التركيبة الاجتماعية للقبائل العمانية، ومقدرة السيد سعيد بن سلطان على احتواء التكتلات القبلية التى كادت أن تعصف بدولته.. إن قوة عمان تتمثل فى وحدتها، وكل فترات الازدهار عبر التاريخ العمانى تكمن فى مقدرة الحاكم على السيطرة على أطراف عمان ونفوذها، باعتبار ذلك هو مفتاح النصر الحقيقى، حدث ذلك فى عهد ناصر بن مرشد مع قيام دولة اليعاربة، وحدث ذلك فى عهد أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيديين، وحدث ذلك أيضاً فى عهد سلطان بن أحمد، وكان السيد سعيد بن سلطان أشد حرصاً على الاستفادة من هذه الدروس التاريخية، ولذا فقد استخلص ما كان لليعاربة من نفوذ فى مقاطعة نخل، ونجح فى انتزاع «صحار» بعد وفاة عمه قيس، وامتدت سيطرته على الرستاق العاصمة الدينية لعمان عقب وفاة سعيد بن الإمام ١٨٢١[1]، غير أنه لم يستطع أن يحافظ على هذه الاستراتيجية لفترة طويلة بسبب توسعاته فى شرق إفريقيا، إضافة إلى التحديات الخطيرة التى أحاطت به من جراء غزوات السعوديين، وتنافس الإنجليز والفرنسيين.

وعلى ضوء كل ما سبق فإنه من الصعب على ابن رزيق أن يكتب تاريخ عمان كاملاً، فإن ذلك فى حاجة إلى جهد هيئات علمية كبيرة، ولكن الرجل قد قدم جهداً مشكوراً يتناسب وإمكاناته العلمية، وأدوات البحث التى اعتمد عليها، من مخطوطات وروايات شفوية حرص المؤلف على الإشارة إليها كلما كان ذلك ممكناً، وما ذكره ابن رزيق ليس هو القول الفاصل فى تاريخ عمان، وخصوصاً فى كتاباته عن دولتى اليعاربة والبوسعيديين، فمن الواضح أنه اعتمد فى كتاباته على مصادر عمانية، سواء شفوية أو مخطوطة، ولم يتح له الاطلاع على المصادر البرتغالية، وكتب الرحالة والقناصل فى عصر اليعاربة، وكذا الوثائق الإنجليزية والفرنسية عن عصر البوسعيد، ومن ثم فقد اتسمت كتاباته عن هذين العصرين بالطابع المحلى، فمعلوماته عن القبائل والأئمة والحروب الداخلية غاية فى الأهمية، لكنه قليل التعرض للعلاقات الخارجية، وعمان بحكم موقعها الحساس دومًا لها علاقات تصالح وتصادم خلال تاريخها الطويل، ومعرفة وجهة النظر الأخرى تعد على درجة كبيرة من الأهمية، وما كتبه ابن رزيق يعد مادة تاريخية خصبة يمكن الاعتماد عليها فى ضوء الوثائق والمخطوطات وتوظيف ذلك

(1) Aitchison, A Collection of Treaties and Sands relating to India and Neighbouring Coutries,Vol.p.205.

كله بطريقة علمية تعتمد على النقد والتفسير والاستقصاء، وأعتقد أن ابن رزيق لو كان يعيش بيننا الآن لأعاد النظر فى كثير مما كتب تقديراً منه للحقيقة التاريخية التى كان يهدف إليها.

وكتابات الرجل تتناسب تماماً مع عصره، حيث لم يكن المنهج التاريخى قد استقرت قواعده بعد، وكانت الكتابة التاريخية تعتمد على مناهج المحدثين تحقيقاً ونقداً، ولذا فإن ما كتب يمكن النظر إليه على ضوء العصر الذى كتبت فيه ثقافة وفكراً ومنهجاً وتوثيقاً... الخ.

إعمال المنهج فى الصيغة التاريخية:

يُعَرَّفُ منهج البحث التاريخى بأنه المراحل التى يسير عليها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية قدر المستطاع، وتتحدد القيمة العلمية للتاريخ المكتوب وفقاً لقدرة الباحث على الدرس والبحث، وقدرته على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر، وطريقته فى استخلاص الحقائق وتنظيمها وتفسيرها وصياغتها، وابن رزيق قد انطلق من فكرة تواصل التاريخ وربط الماضى بالحاضر من خلال حركة تناسق وانسجام، بحيث تعد كل مرحلة مقدمة منطقية للمرحلة التى تليها بشكل متناغم يجذب القارئ ويدفعه إلى مواصلة القراءة.

وما كتبه ابن رزيق فى كتابيه: «القول المبين»، و«الشعاع الشائع»، يعد مثالا واضحاً لإعمال هذا المنهج، حيث يبدأ فى الكتاب الأول بأصل البوسعيديين وجذورهم الممتدة إلى قبيلة الأزد العربية الشهيرة[1]، واعتقاداً من ابن رزيق بأن الأسلوب المختصر ربما يحول دون فهم المراد، فقد أخذ بناصية الثقافة العربية، وراح يدلل من التراث العربى شعراً ونثراً على شموخ الأزد وكرمهم، وامتداد أصولهم عبر التاريخ العربى السحيق.

وبما أن ابن رزيق ذواقة للشعر، ملماً دقيقاً بتراث العرب، لذا فقد حرص على أن تكون صياغته للنص التاريخى مزودة برائحة ذلك التراث، ولذا فقد أتى بأجمل ما قاله العرب شعراً وخصوصاً شعر امرئ القيس الذى استشهد به ابن رزيق كثيراً وهو يتتبع أصول الأزد وأشهر رجالاتهم، ولعله كان يهدف إلى وضع الصيغة التاريخية فى إطار فنى لجذب القارئ ودفعه إلى تتبع الأحداث دون كلل أو ملل، أو أن ثقافته الأدبية

(١) القول المبين فى سيرة البوسعيديين، مصدر سبق ذكره، ص٣.

التراثية قد طغت على ثقافته التاريخية، فتداخل الأدب فى التاريخ، وامتزج التاريخ بالقصص، مشيراً إلى مصادره التاريخية أحياناً، والأدبية فى أحيان كثيرة، فى محاولة جادة لمعرفة الأسباب والعوامل التى أدت إلى حدوث الوقائع التاريخية، والبحث فى تعليل الحوادث وإيضاحها، ولذا فقد راح يذكر عوامل خروج امرئ القيس إلى قيصر الروم يستنصره على المنذر بن ماء السماء[١].

ولم يكتف بمجرد ذكر الرواية التاريخية وتتبعها، وإنما أورد ما يمكن أن نسميه بالتحرية التاريخية، حيث أراد أن يقول: إن من استنجد بغير أهله ذل، ولا يمكن أن يكون ابن رزيق قد أورد مثل هذه القصة من باب التسلية فقط.

والمتتبع لما كتبه ابن رزيق ـ وخصوصاً فى كتابه «القول المبين» ـ يشعر بأن الرجل قد سلك منهجاً لايختلف عن منهج المؤرخين المسلمين الذين برعوا فى الكتابة عن بلادهم كنتيجة طبيعية لارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه، ويذكر المؤرخ أبو الحسن السلامى (ت ٣٧٤هـ) فى كتابه «أخبار ولاة خراسان» أن «من الواجب على صاحب المعرفة من أهلها أن يعلم جمل أبنائها، ويحفظ أيام أمرائها، لا شىء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه، ويكون كمن ترك الواجب وتبع النوافل»[٢].

وابن رزيق استجابة لدوافع دينية ووطنية فقد عنى بتاريخ بلده سياسة وإمامة وشعباً بطريقة سهلة اعتمد فيها على كتابات مؤرخين سابقين، ولعله قد قرأ المقَّرى، وتأثر برسالة أبى على الحسن بن الربيع التميمى القيروانى إلى ابن حزم القرطبى، والتى جاء فيها «أنهم فى غاية التقصير، ونهاية التفريط؛ من أجل أن علماء الأمصار، دونوا فضائل أمصارهم، وخلَّدُوا فى الكتب مآثر بلدانهم، وأخبار الملوك والأمراء، والكتاب والوزراء، والقضاء والعلماء، فأبقوا لهم ذكراً فى الغابرين، وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كل امرئ منهم قائم فى ظله لايبرح، وراتب على كعبه لا يتزحزح، يخاف إنْ صَنَّف أن يعنف، وإنْ ألَّفَ أن يخالف ولا يؤالف، أو تخطفه الطير، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق، لم يتعب أحد منهم نفساً فى جمع فضائل أهل بلده، ولم يستعمل خاطره فى مفاخر ملوكه، ولا بَلَّ قلما بمناقب كُتَّابه ووزرائه، ولا سود قرطاساً بمحاسن قضاته وعلمائه»[٣].

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٦.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ١٠٥.

(٣) المقَّرى، نَفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، جـ٤، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٥٣.

واعتزازاً من ابن رزيق بعروبته فقد أخذ يتنقل بين مصادر التراث مستشهداً بالقرآن أحياناً وبالأحاديث التي رواها جابر بن يزيد في أحيان كثيرة، وبقصص العرب وحكاياتهم ومآثرهم في معظم الأحيان.

ويبدو أن الرجل كان مدركاً طبيعة المهمة التي كان يقوم بها، وخصوصاً في مجال تاريخ علماء الأزد وما خلفوه من تراث أسهم بشكل فَعَّال في تكوين الحضارة الإسلامية، وقد تَمَلَّكَ الرجلَ قَدْرٌ من الشموخ بسبب ما حفلت به كتب التراث من دور رائع للأزد، ومن ثم فقد أخذ يتتبع دورهم في العلوم العربية والإسلامية كافة، غير أن ما يُؤخذ عليه أنه في أحيان كثيرة يميل إلى تصديق كل المعلومات التي قرأها أو سمع بها، وهذا معناه أن كل مُدَوِّنِي الأصول التاريخية لم يخطئوا على الإطلاق، ولم تخف عنهم خافية، وهذا شيء غير صحيح.

لعل من أساسيات المنهج التاريخي أن الشك نقطة البدء في أي بحث علمي، وابن رزيق قد جمع كماً هائلا من المعرفة التاريخية، واعتمد في نقدها على فراسته الشخصية، متسلحاً بمناهج المسلمين الأوائل فيما يتعلق بتحقيق الرواية، وعلى الرغم من ذلك فإن كثيراً من المعلومات قد أوردها بدون تحقيق، مما يؤكد قناعته بصدقها.

ولا يعيب ابن رزيق أنه استشهد كثيراً بالشعر والأدب، لأن الأدب عموماً يقدم لنا تصوراً عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية، إضافة إلى أن الشعر أدَّى دوراً مهمًا في حفظ الأنساب والمآثر العربية، وهو سجل حافل لأيام العرب ووقائعهم، وهو يعين الباحث في التاريخ على تصور ما كانت عليه الحياة، وكثيراً ما يتضمن أسماء أعلام ووقائع وأحداث.

ولذا فإن ابن رزيق حينما عزم على كتابة تاريخ أئمة عمان شعراً نزولا على رغبة أحد أصدقائه[1]، فإن ذلك كان فرصة لحفظ الوقائع والأحداث التاريخية، على اعتبار أن الشعر أسهل حفظاً من النثر، على الرغم من أنه لم يكتف بذلك، بل أخذ في شرح القصيدة، بهدف توضح ما يصعب تناوله شعراً.

(١) وهي القصيدة المسماه «الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان»، تحقيق عبد المنعم عامر، نشر وزارة التراث القومي في عمان، ١٩٧٨.

وعلى الرغم من أن المنهج التاريخي الحديث لا يأخذ بهذه الطريقة، بحكم أن الدراسة التاريخية تعتمد في أساسها على النقد والتفسير والتحقيق، فإن ما أتى به ابن رزيق في قصيدته هذه من شرح وتوضيح قد أكمل القصور الناجم عن كتابته تاريخ الأئمة شعراً.

والقارئ لشروح ابن رزيق يحار في ثقافة الرجل الموسوعية، فهو يتنقل بنا بين علوم اللغة والحديث والتاريخ بطريقة سهلة ممتعة، تضفي على شعره قدراً من الجمال والدقة.

وبتواضع العلماء يعترف بأنه ليس شاعراً، ولكن مطلع قصيدته تنم عن مقدرة وتذوق وموسيقى وثقافة تجعل من الرجل قاسماً مشتركاً للباحثين في مجال التاريخ والأدب والعلوم الإسلامية، ويقول ابن رزيق في مطلع قصيدته:

عمان عن لسان الحال ردِّي ... جواباً منك لي، أرجو الجَوابَا
أما عين إليك لها دموع ... عَلَى مَنْ جسمهم أضْحَى تُرابَا

ولعل أجمل ما قيل:

أئمة أُمَّةٍ كانوا فَبانُوا ... كَغَيْمٍ صُبَّ فَانْقَشَعَ انْجيَابَا
أقاموا العدل بالعزم المُفَدَّى ... إلى المعوج ينخفض انتصابا
سَقَوْا اسيافَهُمْ بِدَمِ الأعادِي ... وما أصْدَوْا بِطَعْنِهِمُ الحِرَابَا

وابن رزيق قد نظم هذه القصيدة بعد أن ألف كتاب «القول المبين في سيرة السادة البوسعيديين»[1].

وفي أحيان كثيرة يبدو أنه قد خرج عن هدفه الحقيقي ـ وهو التأريخ لأئمة عمان ـ حيث يأتي بمعلومات تاريخية ولغوية وفقهية قد تبدو بعيدة عن المعنى الذي يهدف إليه، إلا أنه ما يلبث أن يعود رابطاً ذلك كله بالمعنى الذي يقصده بطريقة سهلة جميلة، مما يدفعنا إلى القول بأن المنهج التاريخي ليس نظرية جامدة، وإنما هو قواعد مرنة، يمكن أن نختلف حولها، فلكل شيخ طريقة طالما أن الغاية واحدة، وهي الوصول إلى معرفة تاريخية أقرب إلى الواقع، قد يكون ذلك شعراً أو نثراً أو شعراً ونثراً معاً، وتدفق

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

معلومات ابن رزيق وثقافة عصره قد أملت عليه هذه الطريقة، التى ربما اختلفنا حولها. إن ما تركه الرجل يعد ثروة تاريخية لا يستهان بها، وعلى الباحثين الذين يعتمدون على منهج البحث الحديث أن يعيدوا ترتيب وتنسيق ما كتبه ابن رزيق، وأن يستخلصوا منه ما يصلح لكى يكون تاريخاً أو فقهاً أو أدباً.

وابن خلدون قد أدرك عامل الزمن واختلاف العصور حين أكد أنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها المؤرخون غفلتهم عن تبدل الأحوال بمرور العصور والأيام، واعتقادهم أن أحوال العالم فى عصرهم هى نفسها فى العصور الماضية لم تتغير، فيحكمون على الشخصيات التاريخية القديمة على أنها معاصرة لهم، فيقول: «ومن الغلط الخفى فى التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحَلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف عن الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال»[(١)].

فمن الخطأ البين أن نحكم على منهج ابن رزيق بنفس المقاييس التى نحكم بها على الكتابات المعاصرة، فلم يكن فى زمن ابن رزيق ما يمكن أن يكون منهجاً مستقلا للتاريخ، وإنما خضعت الكتابة التاريخية فى أكثر الأقطار العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر لاجتهادات شخصية وفقاً لثقافة كل مؤرخ وإمكاناته العلمية، ولم تكن هناك قواعد ثابتة إلا ما خلفه علماء الحديث من قواعد لتحقيق الرواية تصلح فى مجال الحكم على الرجال ورواياتهم، لكن لاتصلح فى تفاصيل تحقيق الأحداث التاريخية بمعناها العام.

وعموماً فإن ابن رزيق قد سد فراغاً كبيراً فى المكتبة التاريخية، فالدراسات التاريخية السابقة عليه مثل «كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة» للأزكوى[(٢)]، وما كتبه محمد بن عريق العدوانى.. الخ قد تميزت بالاختصار الشديد، بدون نقد أو تحقيق، إضافة إلى أن جميعها قد وقفت عند نهاية عصر اليعاربة، بعكس ابن رزيق الذى تناول تاريخ عمان كله تقريباً على طريقة الكتابات الموسوعية، صحيح أنه عنى بشكل ملحوظ بتاريخ عمان

(١) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق د. على عبد الواحد وافى، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٢٥٤.

(٢) كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد القيس، نشر وزارة التراث القومى فى عمان، ١٩٨٠.

المحلى، لكن حتى هذه المحلية كانت من السمات الأساسية التى تميزت بها الكتابات التاريخية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ليس فى بلاد العرب فقط وإنما فى أوربا نفسها، حيث عنى المؤرخون بالتاريخ المحلى لبلادهم، مما أوقعهم فى عيوب ثلاثة: خطأ فى القصد، ونقص فى التصور، وعجز فى الطريقة، أما أن القصد كان خطأ فلأن التاريخ لم يكتب لذاته، بل كُتب لتأييد مصالح سياسية أو دينية، حتى فولتير لم يتورع عن تسخير علمه فى مناوأة رجال الدين[١].

وكانت كتابات الفيلسوف الإنجليزى «هيوم» عبارة عن نشرة من نشرات حزب المحافظين. أما أن التصور كان ناقصاً، فلأن المؤرخين الأوربيين قد أسرفوا فى نزعتهم المحلية والطائفية غير عابئين بغير بلادهم، وسيطرت عليهم العصبية الطائفية. غافلين عن ميادين أخرى كالاقتصاد والاجتماع والفن، وكانوا مسرفين فى أخذ الناحية الفردية من التاريخ، لأنهم كانوا يعنون بالملوك والملكات والقواد، بصرف النظر عن أحوال الشعوب وتأثيرها فى حركة التاريخ، وقد كانت كتاباتهم قاصرة، حيث سَلَّمَ المؤرخون بكثير من الأخبار بدون نقد أو تحقيق، ولم يعنوا العناية الكافية بجمع المصادر.

ويؤرخ لمدرسة النقد الحديث ابتداء من سنة ١٧٩٥، حين كتب العالم الألمانى «وولف» Wolf دراسته الشهيرة «مقدمة هوميروس»، التى لم تكن بحثاً تاريخياً، وإنما كانت بحثا لغوياً أدبياً توصَّل كاتبه من أن الإلياذة والأوديسة لم يكتبها هوميروس، وأهمية ما كتبه «وولف» تكمن فى إمكانية استخراج معلومات مهمة وخطيرة من الوثائق القديمة متى درسناها بطريقة نقدية، وتلقف كثير من المؤرخين فى أوربا مذهب النقد الذى وضعه «وولف»، وظهر فى ألمانيا «ليوبولد فون رنكى» الذى توفى ١٨٨٦.

وفى فرنسا طبق مذهب النقد الحديث حينما تأسست مدرسة الوثائق ١٨٢١[٢]، ومن أقدم تلاميذها «جيرارد» Guerard، ولويس Quicherat وقد سار على نهجهما جبريل مونود Monod، وجوليان هافت Havet، ثم انتقلت مدرسة النقد من ألمانيا وفرنسا إلى إنجلترا، وتمثل ذلك فيما كتبه هنرى، هلام Henri, Hallam فى كتابه الشهير «تاريخ

(١) هونشو Pyoff J. C., Heamshaw، ترجمة وتعليق عبد الحميد العبادى، سلسلة المعارف العامة، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٧٨.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٨٢.

إنجلترا الدستورى» (١٨٢٧)، ثم جاء إثْرَ هؤلاء الرواد عدد من العلماء قدروا أهمية المنهج العملى. ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الدراسات التاريخية فى أوربا وأمريكا قد قطعت شوطاً كبيراً معتمدة على قواعد النقد الحديث، فظهر فى إنجلترا وليم استبز Istubbs (١٨٢٥ - ١٩٠١) ومندل كريتون Griegnton (١٨٤٣ - ١٩٠١) وغيرهما.

وفى الولايات المتحدة ظهر جورج بنكروفت Bancroft (١٨٠٠ - ١٨٩١) وفرنسيس ليبير Lieber (١٨٠٠ - ١٨٧٢).

وهكذا لم تتبلور مدرسة النقد التاريخى بأصولها وقواعدها فى أوربا وأمريكا إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ولذا فإن ما كتبه ابن رزيق عن تاريخ عمان يعد جهداً مشكوراً، حيث تمكن من جمع المعلومات التاريخية، التى كانت مبعثرة فى ثنايا المخطوطات القديمة، وتمكن من تنظيمها وتحقيقها بما يتناسب وثقافة عصره وإمكاناته، وهو جهد لا يمكن تصوره إلا بالوقوف على صعوبة أدوات البحث المتاحة وقتئذ، وبمقارنة ابن رزيق بالمؤرخين المصريين فى نفس الفترة مع نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، نلاحظ أن تاريخ مصر قد اكتنفه الغموض، ولم يظهر مؤرخٌ يمكن أن نقول عنه إنه استطاع أن يرصد الواقع المصرى بدقة علمية، باستثناء الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى سجل الواقع بطريقة علمية من خلال كتابه الشهير «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار». أما مؤرخو مصر خلال العصر العثمانى فلم تتعد كتاباتهم عن مجرد الإشارة إلى وصول باشا جديد إلى مصر، أو قيام المماليك بعزله، أو تدوين الصراعات والفتن التى دارت رحاها بين الفرق العثمانية.

ومن الظواهر المشتركة لمؤرخى مصر خلال العصر العثمانى أنهم ضَمَّنُوا كتبهم قدراً كبيراً من المعارف العربية والإسلامية، بداية من ميلاد الرسول عليه السلام، ومروراً بالعصرين الأموى والعباسى.

وعلى ضوء كل ما سبق، فإن ما كتبه ابن رزيق جديرٌ بأن يُنظر إليه على ضوء العصر الذى كُتب فيه، وبمقاييس المصادر التى اعتمد عليها، ومن الظلم أن نحكم على كتاباته وفقاً للمناهج المعاصرة، التى لم تكن قد عُرفت حتى فى أوربا نفسها. وعلى

الأجيال الواعدة من شباب عمان أن يعيدوا ما كتبه ابن رزيق، وأن يستخلصوا ما يمكن أن يكون تاريخاً بالمعنى العلمي. وسيبقى ابن رزيق دوماً رجلاً مخلصاً لعقيدته ولوطنه، اجتهد قدر إمكاناته وظروف عصره، فكان ذلك كله ثمرة جهده وإخلاصه.

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ أبو ورده عبد الوهاب السعدنى (دكتور)، المؤرخون فى مصر فى العصر العثمانى إلى ظهور عبد الرحمن الجبرتى، دكتوراه غير منشورة، من قسم التاريخ والحضارة، جامعة الأزهر، ١٩٨٨.

٢ ـ أحمد حمود المعمرى، عمان وشرق إفريقيا، وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان ١٩٨٠.

٣ ـ أحمد صبحى منصور (دكتور)، التاريخ والمؤرخون القاهرة، ١٩٨٤.

٤ ـ جمال زكريا قاسم (دكتور)، دولة البوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١، القاهرة ١٩٦٨.

٥ ـ جمال زكريا قاسم (دكتور)، الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول، القاهرة ١٩٨٥.

٦ ـ ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخى، ٧ مجلدات، الدوحة، ١٩٦٧.

٧ ـ السيد عبد العزيز سالم (دكتور) التاريخ والمؤرخون العرب، القاهرة، ١٩٨٧.

٨ ـ حميد بن محمد بن رزيق، القول المبين فى سيرة السادة البوسعيديين، وزارة التراث القومى، سلطنة عمان، ١٩٧٧.

٩ ـ حميد بن محمد بن رزيق، الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان، وزارة التراث القومى، سلطنة عمان، ١٩٧٨.

١٠ـ حسن عثمان (دكتور)، منهج البحث التاريخى، القاهرة ١٩٧٦.

١١ـ أرنولد ويلسون، الخليج العربى، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان.

١٢ـ أنور عبد العليم، ابن ماجد الملاح، سلسلة أعلام العرب، عدد ٦٣، القاهرة ١٩٦٦.

١٣ـ سالم بن حمود السيابى، إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم، دمشق ١٩٧٦.

١٤ـ سرحان بن سعيد الأزكوى، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد القيسى، سلطنة عمان، ن١٩٨٠.

١٥ـ سعيد بن على المغيرى، جهنمية الأخبار فى تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر، سلطنة عمان.

١٦ـ شركة الزيت العربية الأمريكية، عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى، القاهرة، ١٩٥٥.

١٧ـ شوقى عطا الله الجمل (دكتور)، علم التاريخ، القاهرة، ١٩٨٢.

١٨ـ شحاتة محمد إسماعيل (دكتور)، منهج البحث فى التاريخ اليونانى، القاهرة، ١٩٨٥.

١٩ـ صلاح العقاد (دكتور)، التيارات السياسية فى الخليج العربى، القاهرة ١٩٧٤.

٢٠ـ عبد الله بن خلفان بن قيصر، سيرة الإمام ناصر بن مرشد، تحقيق عبد المجيد القيسى، سلطنة عمان، ١٩٧٥.

٢١ـ نور الدين السالمى، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مجلدان، طـ٥، القاهرة، ١٩٧٤.

٢٢ـ هـ. أ. مارو، من المعرفة التاريخية، ترجمة جمال بدران، القاهرة، ١٩٧١.

٢٣ـ هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادى، القاهرة، ١٩٤٤.

* * *